الشرق والغرب

لجناب بولس افندي سرقي المحامي

ان من طالع التاريخ وامتطق الآثار وتتبع سير الحوادث واستقر الاخبار وبحث عن احوال الامم علم ان للامم ادوارًا كالافراد تبتدئ فيها من سن الطفولية وتنتهي الى سن الشيخوخة والهرم ثم الاضمحلال سنة الله في خلقه والدهر في بنيه

والشرق ولا ازيدهُ تعريفًا منبت اسلة الانسان ومهبط الوحي ومهد الانبياء والمشترعين وظرف الحضارة والمدنية وواسطة عقد الجامعة الانسانية ومركز الوحدة النوعية اوسع البقاع رقعةً واخصب الارض تربةً واعذبها ماء واصفاها سماء واصحها هواء قد كان فيما سلف يقلُّ مئات الملايين من ذوي النعمة واليسار والغبطة والرفاه يستخرجون من ارضهِ كنوز الثروة ما يحتاجون اليهِ ويفضل عنهم ما يتجرون بهِ وما فتئوا سائرين في سبيل التقدم والفلاح راقين مراقي العلاء والنجاح رافلين بحلل السؤدد والمجد حتى اخذتهم الفتن على غرة وداهمتهم العداوات والاحن واوقعتهم في المعرة فانفرط عقد اجتماعهم وانفصم حبل اتصالهم وانقلت زمام التحامهم وقامت بينهم قيامة الحروب والمنافسات وتوالت المحن والغارات واستمرت الفتن والعداوات بين الامراء والدول وعظم الشقاق بين البطون والافخاذ حتى تضعضعت احوالهم وساء مآلهم فهبطوا بعد الرفعة وذلوا بعد العزة وصاروا الى الضعف بعد القوة والهرم بعد الفتوة والخمول بعد النباهة والخسف بعد الوجاهة فغدا مجدهم صغارًا واصبح فضلهم عارًا

وهذه يا قومنا حالنا شاهدة بما نقول فقد بلينا بما يذيب الشحم ويقرض اللحم ويبيض العظم ونحن صابرون على ما هو احرُّ من الجمر ومنينا بما وفَّر النقم وثبَّط الهمم وبيض اللمم ونحن صامتون على هذا الكرب قد سبقنا الغربيون في مضمار هذه الحياة مراحل كثيرة ونحن غافلون وجروا امامنا شوطًا طويلاً ونحن قاعدون ذاهلون عن السير في سبيلهم واللحاق بهم حتى اصبح ذلك متعذرًا الاَّ بعد اجهاد النفس في السير زمانًا للوصول الى ما وصلوا اليهِ من ذروة المجد وربوة النعمة التي بلغوا شأوها ما زلَّت بهم الاقدام ولا ندموا على الاقدام بل اصبحوا فيها امنع من عقاب الجو لا يسهم الظالمون بسوء ولا يدركهم الشقاء

نعم ان الغربي قد لقي بجدهِ ما يتمناهُ ووصل بسعيهِ الى ما رجا الوصول اليهِ لم يذر فرصة الاَّ اختلسها ولا رأى ثغرة الاَّ دخلها ولا بابًا الاَّ ولجهُ لنوال المرغوب والفرار

من المرهوب لم تقعدهُ صعاب الامور ولا ثبطت عزيمتهُ حوادث الايام بل عقد النية على نيل الامنية فظفر بها اذ دخل البيوت من ابوابها واخذ الاشياء باسبابها مراعياً في كل حال جانب الامكان غير ذاهلٍ عن احكام الزمان فرقي بذلك ارقى مراتب الوجود الانساني وارفع درجات المجتمع المدني والسياسي لم يألُ جهدًا عن طلب المعارف والعلوم التي مهدت لهُ سبيل الاختراعات وادخلتهُ طور الفضائل والكمالات فصادف فيها محلاً رحيباً ومجالاً واسعاً لاحراز الثروة وسعة العيش باستدرار خيرات الشرق حتى لم يبقِ ولم يذر

هذا والشرقي ناعس طرف الفكرة في رقدة ذي الغفلة غير مبالٍ بما يحدث او هو واقع عليهِ وعلى مصلحتهِ من الانسداد وحقوقهِ من الهضم واموالهِ من الانتهاب ولا بما يتهدد بلادهُ من الخراب لابتزاز الغربي اموالها واستنزاف دمها واستخراج كنوز ثروتها وخسف بدر رونقها وحجب نور بهائها كأن لم يكن شيء ممَّا هو كائن حولهُ بل هو في غفلة الغافل وغرة الآمن ورقدة الكسول لايبدي حراكاً لدرء شرّ او جلب منفعة

ويا ليتهُ قد وقف الامر عند هذا الحد وانحصر الشر عند هذا الخط ولكنهُ لسوء الحظ قد تعداهُ كثيرًا واصبح الخطب متفاقمًا والضرر عامًّا والفقر ضاربًا اطنابهُ في جميع انحاء المعمور من الشرق لانتهاب جالية الغرب ما في يد اهليهِ من بقايا ثروتهم وابتزاز ما في جيوبهم وخزائنهم بادخال مصنوعات بلدانهم في كل صقع من اصقاعهِ وانتشار بضائعهم في جميع امصارهِ وتهافت الشرقي على شراء تلك المصنوعات والسلع بما ملكت ايمانهُ من مرتخص وغالٍ تهافت الفراش على السراج والجياع على القصاع وليس ذلك فقط بل قد نزع الى تقليد الغربي في المآكل والمشرب والملبس والفراش واثاث المنازل والجري على خطتهِ في الملاهي والمراقص والبذخ والاسراف ولم يجارهِ في طلب العلم وتوسيع نطاق العرفان واكتساب الفضيلة ولا قلَّدهُ في الجد والدأب وراء الاختراعات وانشاء المعامل وتأليف الشركات التجاريَّة او الصناعية التي عليها مدار التقدم واحراز الثروة وسعة العيش وعمران البلاد ومع كل ذلك ما كان الغربيون ليقنعوا عند هذا مكتفين بما نالوهُ منا رزقًا حلالاً كان او سحتًا حرامًا بل داوموا الدأب وواصلوا السير وحثوا مطايا الهمم وشنوا الغارة والقوا عصا الشقاق بين الاقوام راكبين متن المخاطر جارين بهمة لا تعرف الملال وعزيمة لا يعتريها الكلال حتى قيض الله لهم الفتح فحلوا في ربوع المشرق بعد ان مهدوا وعورهُ وسهلوا حزونهُ وجابوا سهولهُ

فقبضوا على مفاتيح ثروته واخذوا حاصلاته واستأثروا بتجارته فأصبح تاجره عندهم عاملاً ونبيهه في شرعهم خاملاً وعالمه في عرفهم جاهلاً وزارعه يزرع ولكن لسواه وفلاحه يحاول الجني تمّا قد غرس ولكن لا يذوق جناه بل اصبح كأنه غريب في ارضه او نزيل في داره مع ما يلاقيه من عرق القربة في سبيل الزرع والغرس والاستثمار والجني ولكنهم مع هذا ما كان ليقنعهم ما نالوه بل مدوا ايديهم الى احكام المشرق وتداخلوا في شؤونه المالية والسياسية فابتزوا ملك الملوك ودهدهوا عروش السلاطين وقوضوا اركان اسرّة الامراء وهذه بلاد الهند وبخارا وخوقند وسمرقند والكوشنشين في الشرق الاقصى وغيرها كثير من الممالك التي اصبح ملوكها وامراؤها وشرائعها واستقلالها من متعلقات التاريخ. ولم يكتفوا بما فتحوه بالسيف بل جعلوا فتوحاتهم التجارية اوسع دائرة من تلك فعمت القارة الشرقية ودخلت كل بلاد ومصر وجزيرة من جزائر البحار واحدثت في عادتها وسياستها وثروتها وتجارتها وصناعتها واخلاق اهلها تغييرات ظاهرة ضررها اكثر من نفعها في الحال والاستقبال وجاءت بانقلاب عظيم سريع في الافكار والاحكام والمشارب والعادات بلا استعداد ولا توطئة لهذا التغيير والانقلاب مع استحكام صبغة العوائد فينا ووجوب البقاء على الحسن منها وضرورة التزامنا خطة الاعتدال في السير في هذا السبيل ليتم انتقالنا بحسب ناموس انتقال الامم من حالة ادنى الى حالة احسن منها اذ الطفرة محال في كل حال ولاسيما واننا ما زلنا في تأخر عظيم في الاديبات كتأخرنا في الماديات فعلومنا قليلة ومعارفنا ناقصة لا تمكننا من الولوج في ابواب النجاح ولا تؤهلنا لعمل الاختراعات او تحسين احوالنا التجارية والصناعية والزراعية التي هي اس التقدم والعمران

وفوق كل ذلك فانه ليس عندنا من حب الوطن ما يحملنا على ركوب الاخطار واجهاد النفس وبذل ما يلزم بذله لتحسين احواله ورفع مناره واعلاء شأنه كالذين يبذلون في هذا السبيل النفس والنفيس ويوقفون العمر في البحث والتنقيب فيما يجلب لوطنهم النفع ويدرأ عنه المضرة ونحن متمسكون بالاعراض دون الجواهر مشتغلون بالشقاق الناشئ عن التعصبات الدينية تأخذنا النفرة لنصرة العصبيات الجنسية التي من شأنها تضعيف الميل الى الاجراء والعمل الناشئين عن اجتماع الكلمة واتحاد الوجهة والتكاتف والتناصر على كل ما من شأنه تعميم المبادىء الشريفة ونشر القواعد الصحيحة والتربية المنزهة عن الشين وتضييق العقل لنبذ كل تعصب اعمى مكدر لهيئتنا الاجتماعية

اما المعارف والعلوم التي تعلمناها من القوم او اتانا بها جاليتهم فهي قاصرة في جنب

علومهم ومعارفهم لا تكفي لان تجاريهم في مضمار هذه الحياة ولم تخرج عن كونها مبادئ تكاد تكون كالعدم لضيق نطاقها بالنسبة الى علومهم لا تفي بالمقصود ولا تقوم بضروريانا بل ليتنا لم نتعلمها لانها اضرّت بنا ولم تنفع ولانها لم تأتِ باتقان صناعة ولا بعمل بضاعة ولا اضعفت التعصُّب فينا ولا ازالت الشقاق من بيننا . والذين قد انتفعوا بمعاملة الاجانب وما هم بالعدد الكثير لا يوازي نفعهم الضرر الذي ألمّ بالبلاد باخراج المال منها واخذ المحصولات بابخس الاثمان وارجاعها الينا بعد تغيير هيئتها وبيعها لنا بما يوازي ثمنها ماية ضعف او يزيد

نعم ان محصولاتنا فيما سلف كانت قليلة ولكنها كانت وافية بحاجاتنا او تزيد قليلاً اما الآن وقد خرجنا من تلك الحالة الفطرية البسيطة ونزعنا الى تقليد الغربي في ازيائهِ ولم نقلدهُ في رأيهِ وجدّهِ ولا تعلمنا منهُ طرق الكسب ولا احراز الثروة فقد اصبحت لا تكفينا مع وفرتها فصدق علينا مثل الغراب الذي حاول ان يقلد الحجل في مشيتهِ فلم يتعلمها وقد نسي مشيتهُ فاخذ يقفز قفزاً

ومن الغريب اننا كما نصدق ما يكتبهُ القوم في بعض الاحيان عن اجتهادنا وجدنا في سبيل التمدّن ونسرُّ بالمدح المبهرج منهم مع انهُ اتى بخرابنا وضعضعة احوالنا بفقدان ذات يدنا ولم نفطن لهذا المدح والتملّق حتى اسقط في يدنا واخنى الزمان علينا وتوجه الحيف الينا وانقلب عزنا خسفاً وعاد خولنا ضعفاً وحفّت بنا النوائب من كل جانب

ولما فرغت جعبتنا رجعوا علينا بالذم والتقريع واللوم والتنديد وقد نسوا ما لاسلافنا من عميم الفضل عليهم عندما كانوا في حالة يرثى لها من البربريّة والهمجية واسلافنا في اوج المجد وارفع درجات الحضارة . هذا واننا لا نريد التفاخر باسلافنا ومجدهم كما اننا لا نريد تحقير اسلافهم وانما نريد تبيان ان لكل امة في الوجود الانساني دوراً من الحياة الادبية كما للافراد في الحياة المادية فاذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون

فيا بني الشرق عموماً ومصر خصوصاً الى متى لا تهبّون من رقادكم وحتى مَ لا تنشطون من عقالكم وتنفضون عنكم غبار ذلكم وتستعيدون مسابق مجدكم وغابر عزكم والى مَ تكتفون بالمعاهد الدارسة والآثار العافية وذكرى مجد السلف الذي اخفاه الخمول والغرم الذي اضاعهُ الاهمال حتى لم يبقَ منهُ اثر يذكر الاَّ كبقايا الوشم في المعصم ولمَ لا تسلكون السبيل القصد فتساعدوا اولياء امركم على تكثير المدارس وتعميم التعليم وبذل الهمة في اتقان الزراعة والصناعة ومسابقة الاوربيين الى احراز المحامد

والمكاسب فتصلوا الى ما ترغبون فيهِ وكل من سار على الدرب وصل والله يهدي من يشاء الى صراطٍ مستقيم

الحرُّ واوراق النبات

جاء الصيف واشتدَّ الحرُّ وبدت فائدة الاشجار في الشوارع . فاذا وقف الماشي في ظلها شعر كأن الشمس غابت من السماء والحرَّ زال من الهواء . ولا يشعر بمثل ذلك اذا وقف تحت مظلةً تظلّلهُ اوخيمة تسترهُ . فما السر في كون الاشجار على عدم استحكام ظلها تدفع حرَّ اشعة الشمس اكثر من المظالّ والخيام أذلك حقيقي مثبت بالقياس والامتحان او هو شعور وهميٌّ يختلف باختلاف الاشخاص . وهل هو عام في كل الاشجار مهما اختلف نوعها ام هو متفاوت بتفاوتها فبعضها اصلح من بعض لتظليل الشوارع ووقاية ابناء السبيل . كل ذلك من المسائل التي لا تحلُّ بالحدس والتخمين بل لا بدَّ فيها من المقياس والميزان والبحث والامتحان

وقد بحث العالم الفرد مير الاميركي بحثًا مدققًا في هذ الشأن فأتى بآلة دقيقة جدًّا من الآلات التي تقاس بها الحرارة بواسطة الكهربائية وجعل يحمي اوراق النبات ويقيس بها مقدار الحرارة التي تشع من كل ورقة منها ومقدار الحرارة التي تنفذها. وتفنَّن في ذلك على اساليب شتى منذ سنة ١٨٩٠ الى الآن وامتحن قوة تلك الاوراق على امتصاص الحرارة واشعاعها ونفوذها اذا كانت مغطاة بالندى

وقد وجد ان اشعاع الحرارة من اعلى الورق ومن اسفلهِ واحد في جميع انواع النباتات التي امتحنها وهي كثيرة الانواع بين اشجار وانجم وبقول برية وبستانية ولا يستثنى من ذلك الاَّ نوع واحد الاشعاعُ من اعلى اوراقهِ اكثر منهُ من اسفلها . والاشعاع من اوراق النبات كثير جدًّا ولذلك فالامتصاص كثير جدًّا لان الجسم الذي يشعُّ كثيرًا من الحرارة يمتصُّ كثيرًا منها ايضًا . وقد اثبت ذلك بالامتحان فوجد ان اوراق الاشجار تمتص اكثر من ثمانين في المئة من اشعَّة الحرارة الواقعة عليها من الشمس ولا ينفذها من الحرارة الواقعة عليها الاَّ نحو ١٥ الى ٢٠ في المئة . فاذا وقعت اشعَّة الشمس على ورقة فامتصت الورقة ثمانين في المئة منها وتركت عشرين في المئة لكي تنفذها وكان تحت هذهِ الورقة ورقة ثانية لم ينفذها عشرون في المئة فقط من الحرارة الواصلة اليها بل ٧٨ في المئة واذا